مجلة الحوار الفكري ISSN: 1112-5144
مجلد: 20 عدد: 01 السنة 2026 EISSN2600-6332

الكتابات التاريخية الجزائرية حول أفريقيا بين القرنين18 و20م

Algerian Historical Writings on Africa between the 18th and 20th Centuries

د.رمضان هداجي، جامعة أحمد درايعية – أدرار، الجزائر، التاريخ (تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء المعاصر)،
hadadjiramdhane3@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الارسال: 2025/12/19 تاريخ القبول: 2026/04/21 تاريخ النشر: 2026/06/04

الملخص:

إن الكتابات التاريخية الجزائرية حول أفريقيا هي امتداد للتواصل الحضاري بين شمال القارة وجنوبها، حيث أولى عدد من الكّتاب الجزائريين اهتماما خاصا بتاريخ البلاد السودانية، لما يجمعها من وشائج تاريخية وثقافية مع حواضر الصحراء الجزائرية عبر العصور. وقد تنوعت دوافع تلك الكتابات بين نزعة علمية هدفها توسيع المعرفة وإبراز موقع هذه البلاد ضمن الفضاء الإسلامي، وعلى نقيض ذلك برزت كتابات أخرى ارتبط أصحابها بالإدارة الاستعمارية، فجاءت كتاباتهم كالأداة الاستخبارية التي وظفها المحتل لتثبيت نفوذه في الصحراء الكبرى والسودان. ومن هذا المنطلق، تمايز النتاج الجزائري حول إفريقيا بين أعمال تراجمية ومعرفية ذات طابع ثقافي، وأخرى دقيقة الوصف موسوعية المعلومة، غير أن بعضها انصهر في خدمة المقاصد الاستعمارية، وللتوفيق بين هذين الإتجاهين، تتناول هذه الدراسة الإسهامات الجزائرية في كتابة تاريخ أفريقيا ضمن إطار تاريخي يعكس مدى اهتمام الجزائريين بتاريخ القارة.

الكلمات المفتاحية: أفريقيا؛ الكتابات التاريخية؛ الاستعمار؛ الصحراء؛ الرحالة.

Résumé:

The Algerian contribution to the codification of the history of sub-Saharan Africa is an extension of the cultural communication between the North and the south of the continent .for this reason, a number of Algerian writers have paid special attention to the history of the Sudanese country, because of its historical and cultural ties with the Algerian desert cities through the ages.The motives of these writings varied between a purely scientific tendency aimed at expanding knowledge and highlighting the position of this country within the Islamic space, and in contrast, other writings emerged whose authors were associated with the colonial administration, so their writings came as an intelligence tool employed by the occupier to consolidate his influence in the Sahara Desert and Sudan. From this point of view, the Algerian output on Africa is distinguished between regressive and cognitive works of a cultural nature, and others, although similar to the first in terms of its scientific material, but fused in the service of colonial purposes, which is what this research paper seeks to analyze and clarify its dimensions within an interrelated

intellectual and historical framework that highlights the nature of Algerian approaches in codifying the history of Africa.

Keywords: Africa; historical writings; colonization; Sahara; traveler.

مقدمة

تولي الكتابات التاريخية اهتماما بتاريخ أفريقيا وشعوبها، وتعتبر المؤلفات الجزائرية عينة من هذا الإنتاج المعرفي، فقد شكل الرحالة والمؤرخون الجزائريون شواهد على ازدهار الحضارة الأفريقية، مستندين على القرب الجغرافي والتواصل الثقافي بين الجنوب الجزائري وبلاد السودان. وأسهمت هذه المدونات في توفير رصيد معرفي يساعد على فهم تطور المجتمعات الأفريقية ومكوناتها، وهو ما تسعى لمعالجته هذه الدراسة والمسومة بـ "الكتابات التاريخية الجزائرية حول إفريقيا بين القرنين 18 إو20م"، ولاسيما فيما يعرف بأفريقيا الغربية (السودانين الغربي والأوسط).

وتكمن أهداف هذه الدراسة في الكشف عن الجهود التي بذلتها الأقلام الجزائرية في حفظ الموروث الحضاري الأفريقي وتوثيق معالمه، من خلال إبراز إسهاماتها في إنتاج المعرفة التاريخية، وتحديد أثرها في كتابة تاريخ الشعوب السودانية، من أجل تصحيح بعض التصورات والمرويات الاستعمارية الموافقة للمدرسة الاستكشافية الأوروبية، التي همّشت – غالبا – الفاعل الأفريقي في صناعة تاريخه. ولتوضيح ذلك، تستند الدراسة إلى جملة من التساؤلات، من أبرزها: كيف أسهم الكتّاب الجزائريون في تدوين تاريخ أفريقيا؟ وما الوسائل والمناهج التي اعتمدوها في كتاباتهم؟ وما مدى الإضافة التي قدمتها كتاباتهم في تعميق الفهم التاريخي لماضي بلاد السودان؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، تعتمد الدراسة على المنهج التاريخي القائم على جمع المادة وتحليلها وربطها بسياقاتها الحضارية، مع توظيف الوصف لعرض مضامين النصوص التاريخية، والتحليل لتفسيرها، والمقارنة لموازنتها بغيرها، إلى جانب النقد التاريخي لتقويم معطياتها، ويهدف هذا المنهج إلى استجلاء صورة دقيقة وموضوعية عن إسهامات الرحالة والمؤرخين الجزائريين عند تدوينهم تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء

1. دوافع اهتمام الكتابات الجزائرية بتاريخ أفريقيا

ترتبط الجزائر بروابط تاريخية متينة مع البلدان الأفريقية، مما عزى بعدد من مفكريها إلى الاهتمام بتدوين تاريخ شعوبها عبر مؤلفات تبرز عمق الصلات الجغرافية والحضارية المشتركة، وتهدف هذه الجهود إلى تصحيح الصورة النمطية التي ما فتئ يغزيها الفكر الاستعماري تجاه شعوب القارة، وهو ما سيعالجه هذا العنصر من الدراسة.

1,1. الدافع التاريخي والجغرافي

يرجع اهتمام الرحالة والمؤرخين الجزائريين بتاريخ أفريقيا الغربية إلى مجموعة من العوامل، والتي صنعت عبر الزمن صلة قوية بين الجزائر وشعوب القارة الأفريقية، حيث أسهم موقع الصحراء الجزائرية في ربط الجزء الشمالي من القارة بجنوبها. فكانت مدن ورقلة وتوات وتندوف وتمنراست في جنوب الجزائر، محطات عبور لشبكات طرق كبرى، انطلقت من قسنطينة والجزائر ووهران وتلمسان في الشمال الجزائري، لتصل إلى مراكز القوافل الكبرى في السودان الغربي (تنبكتو

وجني وغاو وولاتة...)، والسودان الأوسط (كانوا وكاتسينا وزنفرة...)، فتبادلت معها السلع والثقافات، وترك ذلك أثرا واضحا في المكون البشري للجنوب الجزائري، الذي يحتفظ بعض سكانه إلى اليوم بجذوره الأفريقية[1].

2,1. الدافع الديني والثقافي:

يعتد هذا الدافع امتدادا للعامل التاريخي الذي أسهم في انتشار الإسلام في غرب أفريقيا، ومن ذلك أن القلقشندي يذكر أن سكان غانا عرفوا الإسلام في أوائل الفتح الإسلامي[2]، ثم تعاقب العلماء والتجار على نشره بأسلوب قائم على الدعوة والأخلاق والتعامل الحسن، فكان ذلك سببا في إقبال الأفارقة المتزايد على الدين الإسلامي طواعية من دون تردد ولا إكراه[3]، وقد برز في هذا السياق عدد من الدعاة الجزائريين، ومن أبرزهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي وعلماء آخرون أجمعوا بين الدعوة والتجارة، واستطاعوا التأثير في ممالك غرب أفريقيا بواسطة ملوكها، فأرسى المغيلي الأسس الأولى لخلافة كنتية ببلاد السودان، دعمت ارتباط أمراء ماسينا مع الكنتيين في مجالي الدين والسياسة، ومن ذلك رسالة الشيخ محمد بن المختار الكبير الكنتي، التي وجه فيها الحاكم أحمد لوب الفلاني إلى الاقتداء بخلفاء الإسلام الصالحين كعمر بن عبد العزيز[4].

وقد تبع هذا التأثير الديني تأثيرا روحيا أعمق، تمثل في انتشار الطرق الصوفية بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين، خاصة القادرية ثم التجانية، حتى غدت الطريقتان جزء من الهوية الدينية عند الأفارقة، الذين شاع عندهم اعتقاد أن من تمام الإسلام إتباع إحدى الطرق الصوفية، الأمر الذي استثمره العلماء في تأسيس الزوايا والمدارس القرآنية، كما فعل المغيلي في أكدز بالنيجر ومخلوف البلبالي ثم الكنتيين في تنبكتو، فكان أثرهم بارز في نهضة الممالك الإفريقية، عبر تعليم العلوم الشرعية، وبناء المساجد، ونشر الثقافة العربية الإسلامية في ربوع حواضر أفريقيا الغربية[5].

3,1. الشعور بالانتماء الأفريقي:

لم تغفل الكتابات التاريخية إبراز الدور الحضاري لإفريقيا في العصور الإسلامية، إذ دفع انتشار الإسلام قوافل الفاتحين من العلماء الجزائريين إلى التوجه جنوبا، ناشرين العلم والفقه، مقتدين بقول النبي الكريم ρ في وصاياه بتبليغ

---

[1]- عبد الله مقلاتي، البعد الإفريقي للثورة الجزائرية وأهميته الاستراتيجية، مجلة الحقيقة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية المجلد 11، العدد 2، 2012/06/30، ص ص 288-307.

[2]- أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، صبح الأعشى في ديوان الإنشاء، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، المجلد الخامس، ص 284.

[3]- توماس أنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة وتعليق، حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النجراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971، ص 391.

[4]- محمد الصالح حوتية، آل كنتة (دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2008، ص 172.

[5]- محمد أمين المؤدب، جوانب من الصلات الثقافية بين المغرب وغرب أفريقيا، ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، الطبعة الأولى، مراجعة وتقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1999، ص 592-593.

رسالة الإسلام إلى شعوب الأرض: "نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَا حَدِيثًا فبَلَّغَهُ. فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَحْفَظُ مِنْ سَامِعٍ"[6]، فتغلغلوا في مجتمعات السودان معلمين ودعاة ومستشارين للحكام، كما كان الأمر مع إمام المصلحين الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي تنقل إلى مملكتي سنغاي وكانو، مؤلفا رسائل في شروط الحكم ومهام الأمير تجاه رعيته لسلطان كاغو محمد رومفا[7]، وقد تواصل العطاء مع أعلام جزائريين آخرين حملوا الحس الإفريقي في كتاباتهم، فأسهموا في ترسيخ الوعي بوحدة المصير الأفريقي، ودحض مزاعم المستعمر الساعية لفصل شمال أفريقيا عن عمقها الجنوبي.

4,1. تثمين جهود الأعلام الأفارقة:

شهدت أفريقيا في الفترة الحديثة حركة علمية أرسى لبناتها ثلة من أبنائها، لذلك اهتم بعض علماء الجزائر بالتأريخ لأعلام وحضارة بلاد السودان، غير أن المتأمل في المصادر التاريخية يرقب أن علماء السودان كانوا سباقين إلى تدوين تراجم أعلام الجزائر في مصنفاتهم، تكريما لدورهم في خدمة الحضارة الأفريقية، ويتضح ذلك في أعمال كبار علماء تنبكتو من أمثال: عبد الرحمن السعدي صاحب تاريخ السودان، ومحمود كعت مؤلف الفتاش، وفي كتابات علماء ولاتة من أمثال: محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي في فتح الشكور، ومواطنه المحجوبي في منح الرب الغفور... وغيرهم من المؤلفين، ويكشف هذا التفاعل العلمي عن حيوية التواصل بين شمال القارة وجنوبها قبل تدخل القوى الاستعمارية الأوروبية التي سعت إلى تقويض تلك الروابط، وإضعاف جسور التواصل المعرفي بين شعوب أفريقيا.

2. أبرز المؤلفين الجزائرين ومؤلفاتهم حول أفريقيا:

يعود اهتمام الكتاب الجزائريين من الرحالة والمؤرخين بتاريخ أفريقيا إلى ما قبل الحقبة الاستعمارية، ويعد المغيلي من أبرز الأعلام الذين أسهموا مبكرا في هذا المجال؛ إذ مهد لمن جاء بعده أرضية علمية خصبة، وبما أن الدراسات الأفريقية تناولت المغيلي باستفاضة، فإن هذا العنصر سيتخطى البحث في جهوده للتركيز على بعض كتاب القرون الثامن عشر ووالتاسع عشر والعشرين الميلاديين، لعدت اعتبارات، أهمها: أن فترتهم كانت قريبة من نشاط الحركة الاستعمارية أو تخللتها، مما يتيح استجلاء أرائهم ومواقفهم عن الشعوب الأفريقية جنوب الصحراء، كما أن بعضهم عاصر مرحلة الكشف الأوروبي للصحراء تمهيدا لبسط النفوذ الاستعماري على القارة، وسنعرض فيما يلي أسماء أبرز هؤلاء المؤلفين، مع التعريف بسيرهم العلمية، وإبراز جهودهم ومناهجهم في دراسة تاريخ أفريقيا.

1,2. عبد الرحمن بن عمر التنلاني (ت 1189هـ/1765م)

هو عبد الرحمن بن عمر التنلاني من بلدة تنلان في منطقة توات جنوب الجزائر، وأحد أبرز علماء الصحراء الذين أسهموا في مد جسور التواصل العلمي بين مراكز الثقافة في الصحراء والسودان، تكوَّن على أيدي علماء أجلاء ممن يشار إليهم بالبنان في عصره، من أمثال: عمر بن عبد القادر التنلاني وعبد الرحمن الجنتوري، والحاج أحمد الأمين

[6]- الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ابن ماجة)، سنن ابن ماجة، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، باب من بلغ علم (الباب 18)، حديث رقم 232، مطبعة دار أحياء الكتب العربية، د ت، ص 85.

[7]- أحمد الحمدي، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي (الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية)، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 138-166.

القلاوي وغيرهم، برع في التأليف الفقهي، كما ألف في علوم القواعد العربية ومن أشهر مصنفاته "مختصر السمين في إعراب القرآن الكريم، وله كذلك أعمال في التراجم والسير، من أبرزها "فهرسة الشيوخ" ضمّن فيها تراجم شيوخه في توات والمغرب، وأشار ضمنها إلى عدد من علماء التكرور الذين استفاد من علومهم.

توفى – رحمه الله – في مصر أثناء عودته من رحلة الحج، ودفن في مقبرة المنوفي سنة 1189هـ/1765م[8].

لقد كان لعبد الرحمان التنلاني خلال رحلاته المتكررة إلى بلاد التكرور، رفقة شيخه وأستاذه عمر بن محمد بن المصطفى الرقاد الكنتي، حضور علمي بارز تمثَّل في مشاركته في حلقات الدرس والتحصيل. نال خلالها إجازات علمية من علماء الساحل الأفريقي في حاضرة أروان العلمية، ذكرهم في سياق فهرسته الخاصة بالمشايخ والأعلام، وهم[9]:

- الشيخ أبو العباس أحمد صالح السوقي
- الفقيه الشيخ طالبن بن السيد الوافي بن طالبن

كما أشار إلى عالم تكروري آخر تردد ذكره في المؤلفات التواتية، وهو أبو العباس أحمد بن الحاج الأمين القبلي الغلاوي، الملقب بالتواتي، وكان قد لقيه التنلاني أول مرة في حاضرة أروان من غير أن يتلقى عنه علما، ثم اجتمع به ثانية في زاوية الركب النبوي ببلدة أقبلي، وذلك في إحدى رحلاته الحجازية ضمن ركب الحاج الشنقيطي عبر توات، وفي تلك المناسبة أجازه، ومما قال عنه في تقديم تحلية ترجمته "شيخنا الإمام، العالم، العلامة، الفقيه، المشارك، أبو العباس سيدي أحمد بن الحاج الأمين القبلي ثم الغلاوي، كان – رحمه الله – عالما، عاملا، فاضلا، جوادا، شجاعا، مهابا، متواضعا، حسن الخلق، ذا معرفة وحفظ لفروع الفقه مستحضرا لها..."[10].

2,2. محمد بن عمر الأغواطي المعروف بالشيباني (ت ق 19 م)

الحاج ابن الدين الأغواطي من الشخصيات الذين شُحت المصادر في ترجمتهم، ويرجح أبو القاسم سعد الله أن عدم ذكره، يعود في الأساس إلى محدودية شهرته العلمية على مستوى الجزائر في وقته[11]، وقد أفاده بعض أهالي الأغواط بأن عائلة ابن الدين لا تزال معروفة بالمنطقة، وأن ابنها كان ذا مكانة في عصره، وأنه كتب عملا استحوذ عليه الفرنسيون، وبخاصة شيخ بلدية مدينة الجزائر آنذاك، والمؤكد أن الأغواطي قام برحلة في الربع الأول من القرن التاسع الميلادي، زار فيها عددا كبيرا من الحواضر الكبرى والقرى، ابتدأها من مسقط رأسه الأغواط مرورا بعين ماضي، جبل عمور، متليلي، وادي ميزاب، المنيعة، ورقلة، تيميمون، أولف، عين صالح، شنقيط، تنبكتو، توات، ورقلة، غدامس، وادي سوف، الطوارق، مطماطة، قابس، تقرت، جزيرة جربة التونسية[12].

---

[8]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني، فهرسة الشيوخ، دراسة وتحقيق، عبد الرحمن بعثمان، رسالة ماجستير، إشراف، عبد المجيد بن نعيمة، كلية الأدب واللغات والعلوم الإنسانية، جامعة بشار، السنة الجامعية 2008–2009، ص 37.

[9]– نفسه، ص 29.

[10]– نفسه، ص 154.

[11]– أبو القاسم سعد الله، مجموع رحلات جزائرية (رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين)، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 80.

[12]– نفسه، ص ص 87–104.

فضلا عن ذلك أورد القنصل الأمريكي جيمس هودسون (James Hodgson) خلال فترة عمله في الجزائر (1825-1829)، أن رحلة الأغواطي تقع في أربعة عشر (14) ورقة، وتنطوي على معطيات جغرافية وإقليمية مهمة، وذلك لما تتضمنه من إشارات إلى مدن وشعوب مجهولة نسبيا، وبعضهالم يشر إليها أي رحالة أو جغرافي أوروبي من قبل حتى ليون الأفريقي، ومن بينها إشارات موجزة عن بلاد السودان، تمثلت في وصف طعام ولباس قبائل الطوارق، والمسافة بين تنبكتو وشنقيط، إلى جانب عرض لطبيعة العلاقات التجارية بين توات والسودان، خاصة تجارة العبيد وتراب الذهب. وإن كان هدف هودسون من الرحلة جمع معلومات دقيقة حول الامتداد الجغرافي للغة البربرية في شمال أفريقيا. فإن الفرنسيين ترجموها في شخص السيد دافيزاك (d'Avezac) من نصها الإنجليزي إلى الفرنسية عام 1833، ثم قرأ ترجمتها في جوان من نفس السنة على أعضاء الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس[13].

3,2. عبد القادر بن أبي بكر بن هيبة الله التواتي (عاش خلال القرن 19م)

هو الحاج عبد القادر بن أبي بكر بن هيبة الله الشريف التواتي من مواليد منطقة أولف، لم تثبت ترجمته في المصادر المحلية، سوى ما أورده بارجيس (Barges) عند نقل رحلته الشهيرة؛ ويرجح مولده في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، باعتبار أن رحلته التي شملت مدن شمال الجزائر وجنوبها والسودان، دونها في عام 1268هـ/1854م، وقد ساهمت تلك الرحلة في تزويد الإدارة الفرنسية بمعلومات دقيقة عن القبائل الصحراوية، في وقت كانت قواتها المتوغلة جنوبا، تعاني صعوبات جغرافية حالت دون تقدمها، بسبب قساوة مناخ الصحراء وتضاريس تربتها، وصعوبة التعرف على توزيع السكان المقيمين في البوادي، مما أدى إلى مقتل العديد من المستكشفين الأوروبيين[14].

تشير الكتابات التاريخية أن الحاج عبد القادر قدم إلى توقرت، فعرض نفسه على الفرنسي دو كودي (Du Couder) المعروف باسم حجي عبد الحميد باي، واستطاع استمالته بما جمعه من أبجدية التيفيناغ، مرفوقة بقائمة لرؤوساء القبائل الممتدة على طول الطريق الرابط بين الصحراء والسودان، ويذكر بارجيس أن عبد القادر جمع هذه المعلومات بتوجيه من ضابط فرنسي، وهو القبطان ألفريد بواسوني (Alfred Boissonnet)، الذي منحه 500 فرنك لتغطية نفقات السفر. وتكتسي رحلته أهمية خاصة لما تضمنته من تقارير دقيقة عن شعوب السودان، إذ مثلت مصدرا ثمينا طالما افتقده قادة الاستعمار، خصوصا بعد تكليف الأمبراطور نابليون الثالث للعقيد دوفيري (Duveryrier) أثناء وجوده بغدامس، جمع معلومات شاملة عن طرق الصحراء المؤدية لبلاد السودان.[15]

4,2. أبو القاسم محمد الحفناوي (ت 1942)

أبو القاسم محمد الحفناوي بن محمد أبي القاسم، ينتسب إلى سيدي إبراهيم الغول، ولد عام 1852 ببلدة الديس قرب بوسعادة، نشأ محبا للعلم، فدرس على والده ثم تنقل بين زوايا المنطقة متعلما، قبل استقراره بالجزائر

[13]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 82-83.

[14]- فارس كعوان، الاستشراق الفرنسي والتراث التواتي (قراءة في رحلة عبد القادر بن أبي بكر بن هيبة الله)، دورية كان التاريخية (دورية إلكترونية ربع سنوية)، السنة الرابعة، العدد الثاني عشر، يونيو 2011، ص ص 42-44.

[15]- نفسه.

العاصمة عام 1883 في عهد الحاكم لويس تيرمان (Louis Terman)، ارتبط بإدارة الشؤون الأهلية وعمل في جريدة المبشر، وتأثر كثيرا بالثقافة الفرنسية ورجالها، خاصة الضابط لويس رين (Louis Reyn) الذي وصفه بشيخه، وقد تولى الحفناوي – زيادة على وظيفة الكتابة في المبشر – مناصب عدة في الإدارة الاستعمارية، منها التدريس بالجامع الكبير عام 1947، والفتوى على المذهب المالكي عام 1936. وبعد تقاعده عاد إلى مسقط رأسه الديس. توفى عام 1942، تاركا مقالات ومؤلفات من أهمها كتابه "تعريف الخلف برجال السلف"[16].

ولاشك أن مقالاته في المبشر كانت بإيعاز من هيئة تحريرها وإدارة الشؤون الأهلية الفرنسة، إذ كان دوره يتمثل في توصيل المعارف العامة إلى المسلمين من وجهة النظر الفرنسية، فنُسبت إليه مخطوطات في الجغرافيا والتاريخ والمعاني، إضافة إلى مقالات في الطب وأخرى تناولت قوافل الصحراء إبان مرحلة التوغل الفرنسي نحو الجنوب، ويعد كتابه "تعريف الخلف برجال السلف" خلاصة إنتاجه، حيث ثبَّت فيه سير عدد من الأعلام، من بينهم تراجم علماء من بلاد السودان، لاسيما من أسرة أقيت في تنبكتو، معتمدا على مصادر سودانية مثل: كفاية المحتاج ونيل الابتهاج...، وبغض النظر عن موقعه الإداري، أشاد أبو القاسم سعد الله بأسلوبه، مؤكدا أن لغته الجيدة تعكس ثقافته الأدبية، فلا يستعمل السجع أو الجمل العامية الثقيلة رغم تأثره الفكري بالتيار الصوفي[17].

5,2. سلكة عبد الرحمن (عاش خلال القرن العشرين)

عبد الرحمن سلكة باحث جزائري تلقى تعليمه في المدارس الفرنسية الرسمية، شغل منصب ضابط لدى المكاتب العربية بمنطقة توات برتبة كاتب عام 1913، واهتم بدراسة البنية الاجتماعية للمجتمع التواتي، فجمع معلومات واسعة ونشرها في نشرة أخبار الجمعية الجغرافية للجزائر وشمال أفريقيا تحت عنوان "ملاحظات حول توات" (Notice sur le Touat)، وقد ركز خلالها على وصف العادات والتقاليد والتنظيمات المحلية والقيادات والقصور، مما يجعله – رغم ولائه للإدارة الاستعمارية – من بين الأعلام الذين وثقوا تاريخ توات مع مطلع القرن العشرين، مستفيدا من موقعه الإداري الذي سنح له بجمع مادة علمية مهمة استخدمها في خدمة المشروع الاستعماري، عبر تزويد الإدارة الفرنسية بمعطيات اجتماعية وجغرافية تعينها على إحكام السيطرة على المنطقة[18].

وبحكم الصلات التجارية القديمة بين توات وبلاد السودان الغربي، تناول عبد الرحمن سلكة في أحد نصوصه تجارة الرقيق التي استمرت لغاية عام 1913، وهو عام تدوين ملاحظاته. فلقد عدّها تجارة موسمية منتظمة، تبدأ بعد انقضاء الحر في أواخر الخريف وتستمر طيلة الشتاء، وذكر مثالا حيّا لتاجر من تافيلالت اشترى ثلاثين (30) عبدا من قافلة تواتية تضم مئة وخمسين (150). كما أشار إلى سلع أخرى مثل غبار الذهب الذي احتكر تداوله الأغنياء وقبائل الزوايا، بالإضافة إلى التمر والتبغ أهم صادرات توات نحو السودان، ويضيف سلكة أنه بسبب تراجع تجارة

[16]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830–1954)، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، الجزء السابع، ص 429–430.

[17]– نفسه، ص 433.

[18]– عبد الله بكوش، الدراسات التراجمية ودورها في خدمة المشروع الاستعماري بتوات بداية من القرن 20م "كتاب ملاحظة حول توات لعبد الرحمن سلكة أنموذجا، مجلة الراصد العلمي، مجلة علمية محكمة دولية، جامعة أحمد بن بلة، وهران، المجلد 10، العدد 1، 31–12–2023، ص ص 54–67.

الرقيق بعد بسط الفرنسيون سطوتهم على الساحل والسودان عام 1900 وتشديد الرقابة عليها، اتجه تجار توات لتجارة بديلة مع رجال الطوارق وعرب الشمال الأفريقي الذين استمر نشاطهم التجاري معهم بانتظام[19].

6,2. إسماعيل حامت (1857–1932)

ولد إسماعيل حامت بالجزائر العاصمة يوم 4 أوت 1857، وتدرج في التعليم الابتدائي والثانوي قبل التحاقه بالمدرسة الحربية الفرنسية سان سير (Saint-Cyr)، حيث تخرج ضابطا مترجما عام 1877، وقد عمل في سلك الترجمة في الإدارة الاستعمارية بين أعوام 1877 و1904، وتدرّج حتى أصبح مترجما محترفا، قبل أن يختم مسيرته المهنية بالحصول على وسام جوقة عام 1911. زاول حامت عمله بالمكاتب العربية وإدارة الشؤون الأهلية في عدة ولايات جزائرية ما بين 1885 و1904، ثم انتقل إلى فرنسا حيث واصل نشاطه بين عامي 1905 و1912. ويعد إسماعيل حامت من أبرز الكتاب والمفكرين الجزائريين في مجالات الترجمة والأدب والتأليف خلال الفترة الاستعمارية؛ إذ مكنته ثقافته الواسعة في اللغتين العربية والفرنسية من إصدار مؤلفات عديدة، غلبت عليها الفرنسية، تناول فيها قضايا المجتمع الجزائري خلال فترة الاحتلال، كما خصص جزء من إنتاجه للتأريخ لأعلام وشعوب أفريقيا[20].

علاوة على ذلك، يعد إسماعيل حامت من أبرز المؤرخين الجزائريين اهتماما بتاريخ أفريقيا، فقد نشرت له المجلات الفرنسية عدة مقالات حول شعوب جنوب الصحراء، منها مجلة العالم الإسلامي التابعة للبعثة العلمية الفرنسية، تناول فيها قبائل كنتة من حيث الأصول والانتشار وتأسيس الإمارات، إضافة إلى مقالات أخرى في المجلة الأفريقية الصادرة عن الجمعية التاريخية الجزائرية[21]، ويعد مؤلفه حوليات موريتانيا السنغالية (Cgronique de Ma Mauritanie Sénégalise) خلاصة أبحاثه الأفريقية؛ إذ عالج فيه موضوعات تاريخية وأنثربولوجية تتعلق بالمجموعات البيضانية والسودانية، مبرزا قدرته على التحليل وتقصي الحقائق. وقد قدم في الجزء الأول من الكتاب مسحا شاملا لتاريخ موريتانيا وجغرافيتها وبنية مجتمعها ومواردها الاقتصادية، بينما خصص الجزء الثاني لأنساب وتراجم شخصيات مؤثرة في تاريخ البلاد، ومن أهمها الإمام ناصر الدين أبو بكر بن أبهم الشمشوي[22].

3. مناهج الكتابات الجزائرية في تدوين تاريخ أفريقيا

تنوعت كتابات المدونين الجزائريين حول تاريخ أفريقيا وتباينت مناهجهم بين الوصف والتحليل، فأنتجوا دراسات معتبرة لرصد أحوال السكان وطبقاتهم وصناعاتهم وتقاليدهم ونظمهم الزراعية، وهو ما جعل بعض مادتهم تُوجَّه – في جانب منها – لخدمة الإدارة الاستعمارية.

---

[19]- Abderrahman Selka, Notice sur le Touat, Bulletin de La Société de Géographie d'Alger et de L'Afriaue de Nord,Vingt-Septiéme Année. 1922, Volu;e XXIII, N 87 a 92, Alger, 1922, P 550.

[20]- إسماعيل حامت، الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، إعداد وتقديم، علي تابليت، منشورات ثالة، الأبيار – الجزائر، 2011، ص ص 13-17.

[21]- Voir; Ismael Hamet, Le Kounta, Revue De Mondes Musulman, Voulum 19, 1912; Revue Africaine, Bulletin Des Travaux De La Société Héistorique Algérienne, Volume 1897-1898.

[22]- Ismail Hamed, Chroniques De La Mauritanie Sénégalaise, Ernest Leroux, Editeur 28, Rue Bonaparte, VI, 1911, P 164-218.

وعليه يمكن تصنيف مناهج الكتّابات الجزائرية في تدوين تاريخ أفريقيا إلى ما يأتي:

1,3. المنهج التاريخي العام

يمثّل إسماعيل حامِت نموذجًا للمؤرخ الجزائري الكفء، الذي يجمع بين الرواية الشفوية والوثائق المكتوبة والسجلات الإدارية في مقارباته التاريخية. وتتضح منهجيته في دراسته لكتاب عثمان دان فودي المسمى "نور الألباب"، فكشف عن أبعاد الكتاب الفقهية الإصلاحية والأدبية اللغوية، وربطها بسياقها الاجتماعي في مجتمع الهوسا. وباعتماده هذا المزج بين العرض والتحليل، منح حامِت النصوص الفقهية بعدًا تاريخيًا مكّن من توسيع قيمتها العلمية[23].

وعند معالجته لمؤلَّف "تزيين الورقات" لعبد الله بن فودي أبرز حامِت مهارته كمؤرخ فطن؛ إذ لم يكتفِ بعرض ما ورد عن أصول الفلّان وبنيتهم الاجتماعية وزعاماتهم، بل قدّم قراءة تحليلية ناقدة، قارنت بين الروايات ووازنت بينها. واعتمد في ذلك على أمهات المصادر العربية في التاريخ الإسلامي، لتثبيت المعطيات وتصحيح ما يحتاج إلى ضبط، مما جعل عرضه يجمع بين الدقة التاريخية وعمق الفهم الاجتماعي[24].

وفي دراسته لتاريخ موريتانيا، مزج حامِت بين المنهج التاريخي العام ومقاربات أخرى مساعدة، معتمدًا في ذلك على المصادر الشفوية التي تعد رصيدا مهما في الذاكرة الصحراوية، إلى جانب المصادر المكتوبة من تراجم ومراسلات أعلام التصوف. كما رجع في تلك الحوليات إلى سجلات الإدارة الاستعمارية والوثائق الرسمية، فاستطاع أن يبني رؤية متكاملة لجغرافية البلاد وقبائلها وعاداتها ومعاملاتها.

2,3. المنهج التاريخي الوصفي

اعتمد الكُتاب الجزائريون على هذا المنهج الأكثر رواجا في الكتابات التاريخية، ويتضح ذلك في أعمال كل من التنلاني وسلكة والحفناوي وهيبة الله التواتي والأغواطي، التي غلب عليها الطابع الوصفي. فقد تناول هؤلاء أخبار أعلام أفريقيا، ومسالك الصحراء، والمعاملات التجارية، وتراجم الشخصيات البارزة.

عند الرجوع إلى كتابات التنلاني والحفناوي، نلاحظ اعتمادهما المنهج الوصفي في تراجمهم لأعلام أفريقيا، عبر التوسع في تبيان شخصياتهم، وشيوخهم، وتلامذتهم، متأثرين في ذلك بالمدرسة المغربية في كتابة التراجم. فقد التزما نمطًا منهجيًا يبدأ بذكر اللقب العلمي، ثم الاسم والنسب والأصل، فذكر المجالس العلمية وطرائق التدريس[25].

وبمعنى آخر، يبدو بينهما تقارب لافت في معالجة النصوص المترجمة؛ إذ قدّما سيرًا وافية لأعلام مغاربة وأفارقة، مثل أحمد بابا التنبكتي (الحفناوي)، والحاج أحمد بن الأمين الغلاوي (التنلاني). وقد استفاد الحفناوي من موقعه داخل الإدارة الفرنسية، التي وفّرت له ظروفًا ملائمة مكّنته من التعريف بالتراث العربي – الإسلامي وتوثيقه[26].

---

[23]- Ismael Hamet, Revue Africaine, Volume, 1897, Op, Cit, P 297-321.

[24]- Ismael Hamet, Revue Africaine, Volume, 1898, Op, Cit, P 71-82.

[24]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني، المصدر السابق، ص ص .66-61

[26]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 430.

بالإضافة إلى ذلك؛ اتّبع سلكة عبد الرحمن والأغواطي وأبو بكر بن هيبة الله نفس النهج الوصفي عند دراسة المكوِّن الأفريقي، غير أنهم اهتمّوا بعاداته، ومسالك القوافل المؤدية إليه، وتبادلاته التجارية، كما يظهر في رحلة الحاج عبد القادر بن أبي بكر التواتي إلى السودان. ورغم محدودية تعلم الأغواطي، عكست كتاباته خبرته بالطريق وسعة إطلاعه، مع بعض الأخطاء في تقدير المسافات، حين ذكر أن شنقيط تقع بالقرب من تنبكبو بينما الواقع يعكس ذلك، مما يرجح اعتماده – في بعض الأحيان – السماع أكثر من المعاينة المباشرة[27]، ويتضح ذلك من حديثه عن تجارة توات مع السودان، حين أغفل التمر والتبغ أهم السلع التواتية الموجهة إلى السوق السودانية.

4. جوانب من الاهتمام الجزائري بتاريخ أفريقيا

تناولت الكتابات الجزائرية حول أفريقيا موضوعات متعددة، اتّحدت جميعها في خدمة المعرفة العلمية، سواء جاءت في سياق البحث الخالص أو لغايات موجّهة. ومن خلال تتبّع مؤلفات الرحالة الكتاب والمؤرخين، يمكن ربط هذه الأعمال بظروفها التاريخية، واستخلاص الحقول المعرفية التي شكّلت إطار الاهتمام الجزائري بالقارة.

ويمكننا من خلال تتبع تلك الكتابات أن نقسم مجالات اهتمامها إلى الآتي:

1,4. الجانب العلمي

برزت في المجتمعات الأفريقية قبل التوسع الأوروبي في القرن التاسع عشر نهضة علمية متجذّرة، اعتمدت على شبكات تعليمية، فغدت مدن مثل تنبكتو وغاو وجني مراكز بارزة للمعرفة منذ القرن السادس عشر. وقد سجّل الكتّاب الجزائريون مظاهر هذا الازدهار، مبرزين تواصل العلماء واتساع الحركة العلمية في المنطقة. وفي حين كانت أوروبا تتجاوز تدريجيا هيمنة القرون الوسطى، كانت أفريقيا قد أرست تقاليد علمية راسخة جسدتها أسر وعلماء كبار، من أبرزهم آل أقيت بتنبكتو الذين حافظوا على مكانة المدينة العلمية حتى أواخر القرن السابع عشر[28]. ويتضح ذلك فيما دوَّنه الحفناوي عن أحمد بابا التنبكتي (ت 1627م)، الذي شكّل مع أسرته ذروة النشاط الفقهي بتنبكتو، وقد شارك في هذا النشاط علماء من مختلف أقاليم الصحراء. وهو ما وثقه ابن المدينة المؤرخ عبد الرحمن السعدي، مشيرا إلى مشاركة العلماء الجزائريين في ترسيخ الفقه والثقافة العربية في بلاد السودان منذ القرن الخامس عشر[29].

وتواصلت هذه الحركة العلمية طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع الميلاديين، عبر شبكات علمية امتدت من بلاد شنقيط إلى أزواد وتوات، برز فيها أعلام مؤثرون، من أبرزهم الحاج أحمد بن الأمين القلاوي التواتي (ت 1743م)، الذي زاوج بين التأليف والرحلة، فغدا حلقة وصل بين مراكز المعرفة في الصحراء الكبرى[30].

وبالمقابل يبرز شرقًا حوض بحيرة تشاد بوصفه مجالًا علميًا لا يقل نشاطًا عن السودان الغربي. ولذلك وثّقت

---

[27]– أبو القاسم سعد الله، الرحلات، المرجع السابق، ص 95.

[28]– عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، تاريخ السودان، وقف على طبعه من غير تغيير في نصه، السيد هوداس، 1981، ص12.

[29]– نفسه، ص ص 27-37؛ الحفناوي، المصدر السابق، ص ص 12-21.

[30]– محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (معجم تراجم العلماء في موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان)، تحقيق وتعليق، عبد الودود ولد عبد الله وأحمد جمال ولد الحسن، دار نجيبويه للبرمجة والدراسات والطباعة والنشر، القاهرة، 2010، ص 95.

الأقلام الجزائرية – إسماعيل حامت – إسهامات علماء الهوسا، وفي مقدمتهم أسرة فودي. فتصدّر عثمان دان فوديو (ت 1817م) منذ أواخر القرن الثامن عشر حركة إصلاحية هادفة إلى محاربة الممارسات الوثنية، والدعوة إلى تعليم النساء والأبناء، وتنظيم شؤون المجتمع وفق ضوابط الشرع. وللتمييز بين الناس وفق سلوكاتهم العقائدية، قسّم المجتمع إلى ثلاثة أصناف: مسلم صريح وأخر يشوب إسلامه عادات وثنية وثالث كافر صريح[31]، وبهذا المنطق مهد عثمان لجهاده الذي بدأ عام 1804م، وأفضى إلى قيام دولة الخلافة في صكّتو عام 1809م بقيادة ابنه محمد بلو وأخيه عبد الله. وامتد تأثير هذه النهضة العلمية والدعوية حتى بدايات التدخل الأوروبي في المنطقة.

2,4. الجانب الاقتصادي

إن صلة الجزائر التاريخية بأفريقيا جعلت الكتابات الجزائرية تولي اهتمامًا كبيرًا بحياة شعوب القارة وطرق الاتصال بها. وقد أبرزت هذه المدونات الدور التاريخي للحواضر الجزائرية، خاصة تلك التي حافظت على تواصل دائم مع بلاد السودان، لما كانت تدرّه تجارتها من ثروات ومكاسب وفيرة على العاملين فيها[32].

1,2,4. الطرق والمسالك التجارية

سميت التجارة الصحراوية في الكتابات التاريخية بتجارة العبور، وقد وردت إشاراتها بشكل متكرر في رحلات المستكشفين الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر. وهي الفترة التي اقترنت بكثرت البعثات الأوروبية التابعة للجمعيات الجغرافية، وأتخذ أصحابها أساليب مختلفة لتحقيق أهدافهم، فتارة يتشبهون بصورة الرجل المسلم، وتارة يدّعون السعي للمعرفة ومساعدة الشعوب السودانية لكسب ثقتها. ومن أبرز هؤلاء المستكشفين هنري بارث (Henri Barth)، الذي أقام مع أحمد البكاي خلال إقامته في تنبكتو، ومانجو بارك (Mango Park)، رينيه كايي (René Caillé)، دي كلافيريه (De Claverie)، وألكسندر غوردون لينغ (Alexander Gordon Laing) الذي اغتيل قرب أروان عام 1826م، قبل إتمام مهمته البحثية التي زار فيها مناطق في توات تنبكتو[33].

ولتعزيز هذا المسعى، عمد الأوروبيون إلى الاستعانة بمستكشفين من أبناء المنطقة، وهو ما وثقه الحاج عبد القادر بن أبي بكر بن هيبة الله التواتي في رحلته إلى السودان عام 1854/1268، حيث قدم تفصيلات دقيقة عن الطرق والمسالك الرابطة بين توات والسودان، والمسافات ومحطات الاستراحة، كما وصف طبيعة الأرض التي مر بها. ومن بين المحطات التي أوردها: عين صالح، عين غير، تيط، أولف، أقبلي، والن، تنزرفت، بلاد الطوارق، المبروك، بوجبيه، الغرابة، تنبكتو، سانسندي، وسيقو. كما أشار إلى المسافة بالأيام بين كل محطتين، وذكر أسماء الآبار الواقعة

[31]- Ismael Hamet, Revue Africaine, Volume 1897, Op. Cit, P 299.

[32]– عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط ومراجعة، خليل شحادة وسهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981/1401، ص 497.

[33]- René Caillé, Journal D'un Voyage A Temboctou Et A Jenné, Imprimé Par Autorisation Du Roi A L'Imprimerie Royale, Paris, 1830, P 370.

على طول الطريق، مثل بئر أم غنان في صحراء تنزروفت بعد سبعة أيام، وبئر طنطينة على بعد أربعة أيام منها[34].

وفي هذا الإطار اهتم إسماعيل حامت بمسالك التبادل التجاري في بلاد السودان الغربي إنطلاقا من حواضر بلاد شنقيط، سواء البرية التي تمر عبر صحراء حواضر شنقيط المدينة، تيشيت، لاتة، أزواد، وصولا إلى تنبكتو، أو البحرية التي يلعب فيها نهر السنغال دورًا مهمًا في الربط بين الإمارات الموريتانية في الترارزة والبراكنة ومناطق السنغال، مسلطًا الضوء على ديناميكية التجارة وأهمية هذه المسالك في انتشار السلع والمعرفة[35].

2,2,5. المبادلات التجارية

كانت التجارة وسيلة رئيسة للتواصل بين الشمال والجنوب، نظرا لانتقال سلع الشمال عبر طرق الصحراء إلى الجنوب، والعكس صحيح، دون أن تشكّل التضاريس عائقًا لتواصل الضفتين، بل كانت شريان حيويًا للنقل. وتشير الكتابات التاريخية الجزائرية (المتمثلة في أعمال الحاج عبد القادر التواتي وإسماعيل حامت وعبد الرحمن سلكة) إلى المراكز التجارية الكبرى في سانسندي وجني وسيغو وتنبكتو، والمرتبطة بحواضر تافيلالت وغدامس وتوات. وتناولت هذه المصادر مختلف السلع المتداولة، بما في ذلك العبيد والملح والمواشي والصمغ العربي، إضافة إلى مناجم الذهب في سيغو وبيتا وكيركاي وميلي، والمعادن الثمينة مثل الألماس والياقوت وحجر القط والكريستال والرخام بأنواعه الأخضر والأحمر والأسود، ما يعكس ثراء الموارد الاقتصادية لبلاد السودان الغربي وامتداد شبكة التجارة عبر مراكزها[36].

وتبعا لذلك قدمت كتاباتهم تفصيلات مهمة للإدارة الاستعمارية عن طبيعة المعاملات السائدة في بلاد السودان، والتي ارتكزت أساسًا على المقايضة، مع تعديل قيمة السلعة حسب أهميتها التسويقية. فالمعاملات الكبرى مثل شراء وبيع العبيد أو الحبوب كالقمح والشعير كانت تُدفع بالذهب أو بقطع الملح (تعرف بالعديلة)[37] المستخرجة من الملاحات الكبرى في تاودني وتغازا وسبخة إجيل، بينما الخضروات والفواكه والحبوب الغذائية تُقوّم غالبًا بقواقع الكاوري. كما كان يُلجأ أحيانًا إلى العملة المحلية حسب اتفاق التاجر والبائع ومدى انتشارها في السوق[38].

3,5. الجانب الجغرافي والاجتماعي

إن اهتمام الكتابات التاريخية بدراسة أحوال المجتمعات الأفريقية الصحراوية والسودانية، تحيلنا إلى نظرية تأثر البشرة بطبيعة المناخ. وقد أشار العلامة ابن خلدون في مقدمته إلى أن سكان الصحراء الكبرى يتعرضون لحرارة مفرطة في الصيف، مما يؤدي إلى تغير لون بشرتهم[39]. ونقل المستكشفون الأوروبيون مثل الدكتور لانز خلال رحلته إلى تنبكتو

---

[34]- Abd El Kader Ben Abou Bekr Et Touaty, Transporté, M. L'Abbé Bargés, Et Sahara Et Le Soudan, Au Bureau De La Revue De L'Orient, De L'Algerie et Des Colonies, Libraire-Edicteur, PARIS, 1850, P 10.

[35]- Ismail Hamed, Op, Cit, Chroniques De La Mauritanie Sénégalaise, P 58-59.

[36]- Abd El Kader Ben Abou Bekr Et Touaty, Op, Cit, P P 10-21.

[37]- محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ابن بطوطة)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الطبعة الرابعة، دار صادر، بيروت، 2011، ص393.

[38]- أبو زيد عبد الرحمن الجنتوري، الفائح النسيم في فتاوى أبي زيد عبد الرحمن الجنتوري المسماة نوازل الجنتوري، مخطوط، جمعها محمد بن مسعود الجراري، خزانة بن عبد الكبير، المطارفة، ولاية تيميمون، الجزائر، د ت، ص 37.

[39]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص 105.

وهنري بارث أثناء اجتيازه طرق التجارة الصحراوية، خطورة هذا التأثير. ووقف الرحالة التواتي الحاج عبد القادر بن هيبة الله على هذه الملاحظة، مشيرًا إلى أن أطفال قرية بوجبيه من كنتة وبرابيش يولدون بيض البشرة، ثم تكسو وجوههم سمرة كلما تقدموا في العمر نتيجة التعرض لأشعة الشمس والمناخ الصحراوي القاسي[40].

ومن الموضوعات المهمة التي تطرق إليها إسماعيل حامت في تحقيق كتاب "تزيين الورقات" أصول الفولان، وأورد بشأن ذلك فرضيات، لاسيما تلك التي تنسب شعوبهم للجيش العربي الفاتح لبلاد السودان، بينما أفرد في حوليات موريتانيا دراسة مفصلة لبنية المجتمع الموريتاني، المكوّن أساسًا من طبقة الحسان المحاربين، وقبائل العلم والتجارة المرتبطة بالزوايا الدينية، والقبائل الخاضعة للحماية فيما يُعرف باللحمة، وأخيرًا فئة العبيد[41].

جدير بالذكر أن فئة العبيد مثلت أولى اهتمامات عبد الرحمن سلكة في ملاحظاته (Notice sur le Touat)، فاعتبرها فئة مهمشة، تُعامَل بازدراء شديد، وتفتقر لأدنى حقوقها الاجتماعية، نتيجة تعرضها لمعاملات قاسية أثناء نقلها عبر القوافل من مناطق الشحن في ساسندي وجني وغاو إلى مراكز التصدير. معبرا عن إمتنانه للعنصر الأوروبي الذي حارب هذه الظاهرة في منطقة الساحل مع مطلع القرن العشرين (20)، ولولا ذلك لظل أفرادها عرضة لذل واحتقار لا يوصف، ما يوضح حجم الاستغلال الاجتماعي والاقتصادي الذي تعرضت له[42].

4,5. الجانب السياسي:

شهدت منطقة السودان الغربي وفي مقدّمتها تنبكتو، اضطرابات سياسية عميقة بعد سقوط دولة سنغاي عام 1591م على يد الجيش السعدي بقيادة جودر باشا. فقد ترك السعديون تسيير البلاد في يد حامية عسكرية تُعرف محليا باسم طائفة الرماة، الذين دخلوا مرارًا في صدامات مع الطوارق الساعين إلى السيطرة على المدينة، مما زج بالمدينة في دائرة من عدم اللاستقرار امتدت لقرون. وتعاقبت على تنبكتو خلال هذه الفترة قوى متنافسة، من الرماة إلى الطوارق ثم الفُلان، قبل أن تسقط المدينة في يد الفرنسيين عام 1894[43].

وقبيل زيارة الحاج عبد القادر التواتي عام 1854، كانت المدينة قد خضعت لحكم الفولان المتمثل في دولة ماسينا الفلانية سنة 1826م، الأمر الذي دفع بعض التجار المغاربة إلى الاستنجاد بالكنتيين ذوي النفوذ الديني عند حكام ماسينا، غير أن جهودهم لم تُجدِ نفعا. واستقر الحكم في نهاية المطاف بيد أحمد لبو، الذي وسّع حدود دولته قبل وفاته عام 1845م من جني إلى تنبكتو، ومن إقليم نابالا جنوبًا إلى مناطق الدوغون[44].

ولم تكن أوضاع بلاد شنقيط بأحسن حال من تنبكتو، بفعل التغيرات الطارئة التي عمت صحرائها منذ القرن

---

[40]- Abd El Kader Ben Abou Bekr Et Touaty, Op, Cit, P 9.

[41]- Ismael Hamet, Op, Cit, Revue Africaine, Volume 1897, P 71-82; Chroniques De La Mauritanie Sénégalaise, P 27-56.

[42]- Abderrahman Selka, Op, Cit, P 550.

[43]- Abd El Kader Ben Abou Bekr Et Touaty, Op, Cit, P 9.

س. باير، الصحراء الكبرى في القرن التاسع عشر، تاريخ أفريقيا العام في القرن التاسع عشر، تحت إشراف، ج. ف. آدى آجابي، منظمة اليونسكو، لبنان، 1996، المجلد السادس، ص 598.

[44]- م. لي – تال، تاريخ أفريقيا العام، المرجع السابق، ج 6، ص 682.

الخامس عشر الميلادي تاريخ دخول القبائل العربية الحسانية، فكانت البلاد على موعد مع تحوّلات عميقة، مما أدى إلى انتشار اللسان الحسّاني وتراجع المكوّن الصنهاجي البربري. ورغم هذا التحوّل استمرت حركات صنهاجية بارزة، أهمها حركة الإمام ناصر الدين التي استمرت حوالي ثلاثة عقود من القرن السابع عشر (1644–1674).

وتجدر الإشارة إلى أن إسماعيل حامت تناول هذه المرحلة بالتفصيل في حوليات موريتانيا السنغالية، معالجاً تاريخ الإمارات الموريتانية معالجةً تاريخية جغرافية دقيقة (الجذور والانتشار ومجالات النفوذ)، ومستنداً في ذلك إلى منهج الحوليات عند ترتيب تتابع الأحداث من القرن السابع عشر إلى مطلع القرن العشرين. وخلالها تطرق لتاريخ الإمارات العربية الكبرى مثل الترارزة والبراكنة وإمارة آدرار وأولاد مبارك وأولاد دليم، مبرزاً صعودها على حساب الرئاسات الصنهاجية القديمة، وتحولات هياكلها السياسية وشيوخها وأدوارهم في صراعات النفوذ التي أعادت تشكيل المشهد الصحراوي – الساحلي، ولا سيما خلال مرحلة التوغّل الفرنسي المتسارع بعد 1850م[45].

خاتمة

توصل هذا البحث إلى عدد من الخلاصات المهمة التي تُبرز مكانة الكتابات الجزائرية في حقل الدراسات الأفريقية، ومن أهمها:

أولا: تنوعت مصادر الكتابة الجزائرية حول تاريخ أفريقيا بين الرحلات والجغرافيا والتراجم والمؤلفات التاريخية، مما أتاح رؤية متعددة الزوايا لطبيعة المجتمعات الأفريقية.

ثانيا: أسهمت الكتابات الجزائرية في التعريف بتاريخ أفريقيا في مجالات العلم والاقتصاد والمجتمع والسياسة، مع إبراز الروابط الحضارية والتجارية بين الجزائر وبلاد السودان.

ثالثا: تأثرت مضامين هذه الكتابات بالبيئة العلمية والفكرية التي نشأ فيها أصحابها؛ فظهر في بعضها المنظور التقليدي لعلماء الصحراء، وفي بعضها الآخر أثر المدرسة الاستعمارية لدى الكُتّاب المقرّبين من الإدارة الفرنسية.

رابعا: اعتمد هؤلاء المؤلفون مناهج متعددة في تناولهم للتاريخ الأفريقي، تراوحت بين المنهج الوصفي القائم على المشاهدة والملاحظة، والمنهج التاريخي التحليلي الذي ينطلق من الوثائق ولا يقصي المرويات الشفوية.

خامسا: أبدى الكُتّاب الجزائريون اهتمامًا بالغًا بالحركة العلمية في بلاد السودان، خاصة منذ القرن السادس عشر، مؤكدين دور حواضر عتيقة كتنبكتو في حفظ العلوم رغم التهديد الأوروبي المتصاعد خلال القرن التاسع عشر.

سادسا: يُبرز النتاج الجزائري في حقل الدراسات الأفريقية عمق التواصل الحضاري بين الجزائر وجنوب الصحراء، من خلال مؤلفات شكلت امتدادًا لمسار معرفي، أسسه كتاب مبكرون مثل عبد الرحمن بن عمر التنلاني، فمهّدوا به لمن جاء بعدهم للتعريف بأعلام وأحوال المجتمعات الأفريقية.

وفي الختام، تجدر الإشارة إلى أن ما قدم يمثل جزءا يسيرا من الإسهامات الجزائرية المعتبرة، والتي يعد أصحابها من

[45]- Ismael Hamet, Chroniques De La Mauritanie Sénégalaise, Op, Cit, P 55.

المصادر المهمة في دراسة تاريخ أفريقيا، فكل عمل من هذه الكتابات قادر بمفرده على تزويد الباحثين بإشكاليات بحثية أعمق عن تاريخ المنطقة، لا سيما وأنها تناولت فترة كانت القارة خلالها معرضا للتجارب الاستعمارية، وعلى الصعيد المنهجي تظل كتابات حامت الوعاء الذي قد يوفر مادة علمية غنية ودعامة منهجية للباحثين، تمكنهم من تعميق الدراسات حول ماضي القارة في مختلف المجالات الحضارية من سياسة وأدب وتاريخ واقتصاد ومجتمع وثقافة... إلخ

المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع العربية

– الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ابن ماجة)، سنن ابن ماجة، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، باب من بلغ علم (الباب 18)، حديث رقم 232، مطبعة دار أحياء الكتب العربية، د ت

– مقلاتي عبد الله، البعد الإفريقي للثورة الجزائرية وأهميته الاستراتيجية، مجلة الحقيقة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والإسلامية المجلد 11، العدد 2، 2012/06/30.

– القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، صبح الأعشى في ديوان الإنشاء، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، القاهرة، المجلد الخامس، 1915.

– أرنولد توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة وتعليق، حسن إبراهيم حسن وعيد المجيد عابدين وإسماعيل النجراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971، ص 391.

– حوتية محمد الصالح، آل كنتة (دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2008.

– المؤدب محمد أمين، جوانب من الصلات الثقافية بين المغرب وغرب أفريقيا، ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، الطبعة الأولى، مراجعة وتقديم، عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1999.

– حديث شريف

– الحمدي أحمد، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي (الإطار المعرفي والتعامل مع المكانية)، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

– التنلاني عبد الرحمن بن عمر، فهرسة الشيوخ، دراسة وتحقيق، عبد الرحمن بعثمان، رسالة ماجستير، إشراف، عبد المجيد بن نعيمة، كلية الأدب واللغات والعلوم الإنسانية، جامعة بشار، السنة الجامعية 2008-2009.

– فارس كعوان، الاستشراق الفرنسي والتراث التواتي (قراءة في رحلة عبد القادر بن أبي بكر بن هيبة الله)، دورية كان التاريخية (دورية إلكترونية ربع سنوية)، السنة الرابعة، العدد الثاني عشر، يونيو 2011

– سعد الله أبو القاسم، مجموع رحلات جزائرية (رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين)، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

– سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، الجزء السابع.

– بكوش عبد الله، الدراسات التراجمية ودورها في خدمة المشروع الاستعماري بتوات بداية من القرن 20م "كتاب ملاحظة حول توات لعبد الرحمن سلكة أنموذجا، مجلة الراصد العلمي، مجلة علمية محكمة دولية، جامعة أحمد بن بلة، وهران، المجلد 10، العدد 1، 2023-12-31.

– السعدي عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر، تاريخ السودان، وقف على طبعه من غير تغيير في نصه، السيد هوداس، 1981.

– البرتلي محمد بن أبي بكر الصديق الولاتي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (معجم تراجم العلماء في موريتانيا وما يليها من مناطق الصحراء والسودان)، تحقيق وتعليق، عبد الودود ولد عبد الله وأحمد جمال ولد الحسن، دار نجيبويه للبرمجة والدراسات والطباعة والنشر، القاهرة، 2010.

– ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط ومراجعة، خليل شحادة وسهيل زكار، الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981/1401.

– اللواتي محمد بن عبد الله الطنجي (ابن بطوطة)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الطبعة الرابعة، دار صادر، بيروت، 2011.

– الجنتوري أبي زيد عبد الرحمن، الفائح النسيم في فتاوى أبي زيد عبد الرحمن الجنتوري المسماة نوازل الجنتوري، مخطوط، جمعها محمد بن مسعود الجراري، خزانة بن عبد الكبير، المطارفة، ولاية تيميمون، الجزائر، د ت.

– مجموعة مؤلفين، تاريخ أفريقيا العام في القرن التاسع عشر، تحت إشراف، ج. ف. آدى آجابي، منظمة اليونسكو، لبنان، المجلد السادس، 1996.

ثانيا: المصادر والمراجع الأجنبية

- Selka Abderrahman, Notice sur le Touat, Bulletin de La Société de Géographie d'Alger et de L'Afriaue de Nord,Vingt-Septiéme Année. 1922, Volu;e XXIII, N 87 a 92, Alger, 1922.

- Hamet Ismail , Le Kounta, Revue De Mondes Musulman, Voulum 19, Paris, 1912.

- Hamet Ismail , Revue Africaine, Bulletin Des Travaux De La Société Héistorique Algérienne, Volume, 1897-1898.

- Hamed Ismail , Chroniques De La Mauritanie Sénégalaise, Ernest Leroux, Editeur 28, Rue Bonaparte, VI, Paris, 1911.

- Caillé René, Journal D'un Voyage A Temboctou Et A Jenné, Imprimé Par Autorisation Du Roi A L'Imprimerie Royale, Paris, 1830.

- Abd El Kader Ben Abou Bekr Et Touaty, Transporté, M. L'Abbé Bargés, Et Sahara Et Le Soudan, Au Bureau De La Revue De L'Orient, De L'Algerie et Des Colonies, Libraire-Edicteur, PARIS, 1850.